ومناحيم بيغن هو الذي قال: «لولا النصر في دير ياسين، لما كانت هناك دولة اسرائيل». ولم يخفوا الغاية من مذبحة دير ياسين ، وقتها ، حين طافت سياراتهم تعلن في مكبرات الصوت الاختيار التالي : اما ان تخرجوا ، واما ان يحدث لكم ما حدث في دير ياسين . وفي كل القرى التي احتلوها ، فيما بعد ، كانوا يجمعون السكان في الساحة ويبقونهم ساعات تحت الشمس ، ثم يختارون أجمل الشباب ويقتلونهم على مرأى من أهل القرية، لكي يضعوهم امام الاختيار ولكي تصل انباء المجزرة الى القرى التي لم تحتل بعد ولكي يفرغوا احقادهم التاريخية المكبوتة . ووجد الاسرائيليون ايضا فتوى قانونية تقول ان العرب باعوا أراضيهم . ومن المؤسف ان تلتقي قناعات عربية معينة مع هذه القناعة الاسرائيلية ، دون ان يحاول اصحاب هذه القناعات معرفة ان اليهود لم يملكوا حتى عام ١٩٤٨ اكثر من ٦ بالمائة من مجموع اراضي فلسطين .

— وانتم .. ماذا فعلتم بأرضكم ؟

● اسأل عم فعلت بنا الارض ؟ قتلت جدي من القهر والانتظار . وشيبت أبي من الكدح والبؤس . وأخذتني الى الوعي المبكر بالظلم . كان جدي ملاكا موفور الحال . وحين حدث ما حدث ، وصار هو « حاضرا غائبا » كان يقضي ايامه امام مكتب الحاكم العسكري في انتظار تصريح سفر الى مدينة عكا لا لشيء الا ليرى ارضه من خلال نافذة سيارة الباص . يقضي يومه في قراءة الجرائد ويقضي ليله في التأمل واستعادة الذكريات .. وينتظر . هو الذي رباني وكنت احبه أكثر من أبي الذي كان مشغولا بالضنى واستخراج الخبز من مقالع الصخر . علمني جدي القراءة ومساحة الارض وأعمار الزيتون . وكان يشتري لي كتبا من عكا ويأخذني الى اصدقائه ليفاخر بالطفل الذي يقرأ الجريدة والكتب ويحفظ الشعر القديم ، ولا يخطىء الا في قراءة سورة يس. يقرأ لهم من سيرة عنترة والزير وروايات جرجي زيدان التاريخية الى ان ينام . وفي الصباح اذهب الى المدرسة التي لا تسجل اسمي لان أبي غير مسجل في ملفات الحكومة . من ذهب الى لبنان وعاد بعد عام او عامين لا يعود موأطنا . ومن جاء من وارسو بعد ألغي سنة يملك الحق والوطن .

وفي ساعة متأخرة من الليل يدق ضابط الشرطة باب البيت الطيني بعصاه ، ويوقظ الاسرة المؤلفة من الجد والجدة والوالدين والابناء الاربعة — وكلهم مكدس في غرفة واحدة هي الصالون وغرفة النوم والمطبخ. يتوجه الضابط الى الجد ليسأله : هل عاد أبناؤك من لبنان ؟ يعترف الجد « بالجريمة » ، ويسوق الضابط الاب والعم الى الاعتقال بتهمة التسلل الى بلادهم !.

ولم يتوقف جدي عن ممارسة الامل ، فانتقل الى قرية أخرى قريبة من أرضه . وذات صيف احتال على القانون ، فاستأجر من تاجر يهودي موسم البطيخ المزروع في أرضه . وهكذا أتيحت الفرصة لصاحب الارض ان يشتري ما تنتجه ارضه . وكان جدي قليل الدراية بالتجارة فخسر الصفقة ولكنه ربح فرصة للتمدد ساعات طويلة في حقله القديم وشرح لي ، تحت الشمس ، تاريخ هذا التراب الذي لا تجد فرقا بسيطا بينه وبين جلده. كان تعلق جدي بشكل الانتماء الوطني المتجسد في ملكية التراب وحنينه الى اعادة الصلة المقطوعة ، قانونيا ، والتلاحمة ، تاريخيا ووجدانيا ، أقوى من البؤس المفاجيء الذي تعرض له نتيجة حرمانه من مصدر رزقه . فلو كان انتماؤه معيشيا لحل المشكلة بفك هذا الانتماء المعيشي الذي سيضمن له الرخاء . ولكنه آثر الحرمان على بيع الارض ، لم تعد الارض تعني بالنسبة له مصدر العيش كما كانت قبل ان تتحول الى شرط الكرامة. صارت تعني له الان ، بعد مصادرتها ، مصدر البؤس المعيشي من ناحية وصيانة الكرامة الشخصية والوطنية من ناحية أخرى . وقد فضل المعنى الثاني ومات على مرأى من